

مضامين السرد وأدوات التوصيل

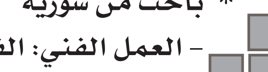
بقلم: د. جويس كارول أوتس
ترجمة: رافع مصطفى شاهين *

لماذا تكتبين؟ يطرح علي هذا السؤال في بعض الأحيان من كاتب آخر تبدو عليه الجدية والاهتمام، ولكن في معظم الأحيان أتلقاه من رجل يكبرني مرتين في الحجم، قد وجد نفسه جالساً بجانبي وقت الغداء، ولم يجد ما يقوله لي غير هذا السؤال. يسألني لماذا تكتبين: مع أني لم أسأله لماذا تعمل بجد؟ أو لماذا تحلم؟ بل لم أسأله لماذا تسأل هذا السؤال:

---

* باحث من سورية

- العمل الفني: الفنان شادي العيسمي



عندمــا أكون مؤدبة لا أجد ما أقوله، وفي مثل هذه الأوقات أكون أكثر رقة، وفي العادة أجيب: لأنني أستمتع بالكتابة. وهي إجابة لا ضــرر منها وصحيحة، كمــا أنها ترضي هذا النوع من المتسلطــين الذين يزعجونني (مرة علــى الأقل في الأسبوع خلال العام المنصرم) بأسئلة يقصد منها:

- الإيحاء بعجــز الكاتب عن التعامل مع العالم الواقعي.

- الإيحاء بتفوق السائل لأنه لا يحتاج إلى الاعتماد على الخيال الجامح ليكسب قوته.

لمــاذا تكتبين؟ ســؤال آسر. ومــع أني لا أتحــدث عــن نفســي أو أدافع عنهــا على رؤوســ الأشهــاد، إلا أني في الســر يستحوذ علــي التفكير في الدوافع من وراء الكتابة، أو أي نــوع من أنواع الإبــداع الفني. أنا مهتمة بأغــوار العقل والخيــال، وخصوصاً الخيال شبــه الواعي الــذي يلقي إلينا ليــلاً ونهاراً بالمفاجآت الغريبة والمحبوبة، وإنني لا أختلف كثيراً عن المتشــكك الذي يسألني بتهكم لماذا أكتــب، فهو أيضاً يكتب ويبدع ويحلم كل ليلة وربما خلال النهــار، وأحلامه إبداعات فنية مشروعة، لأن جزءاً من طبيعة خيال الإنسان أن يحلــم. فالذيــن يكتبون مــن بيننا - أي الذين يرتبون ويعيــدون تركيب الواقع بوعي ليكتشفوا معانيه الخفيــة - حالمون جادون، وقــد يكونون مدمني أحــلام، ونحن لا نحلم لأننا نخاف من الواقع أو نحتقره. وكما قالت فلانــري أوكنر (في كتابها الرائع الذي يحوي مقالاتهــا التي جمعت بعد موتها: (الطقوس والعادات) الكتابة ليس هروباً من الواقع «إنها غوص في الواقع، وهو أمر مروع كثيراً». وهي تصر على أن الكاتــب شخص يأمل في العالم خيراً، لأن الذين لا أمل لهم لا يكتبون).

إننــا نكتــب كي نقــدم صــورة مختصرة ومترابطــة للحياة التي هي في الغالب مربكة ومرعبــة ومملة كما تتكشف من حولنا. كيف نروض هذه العاصفة مــن اللحظات والأيام والسنــين؟ إن الحياة لا معنــى واحداً محدداً لها، وأنا مذعنــة تماماً لهذه الحقيقة، ولكن الحياة لها معــان -معان فردية مرعبة يمكن إدراكهــا- والمغامرة التي يقــوم بها الإنسان تتمثل في البحث عــن هذه المعاني. إننا نريد أن نكتشف من الحيــاة أكبر ما يمكن. ونحن لا نختلف كثيراً عن علمــاء الطبيعة أعدائنا المشهورين الذين يريــدون أيضاً أن يكتشفوا معــاني الأشياء لجعــل الحياة أكــثر ترابطاً وليضعــوا الأمــور في نصابها ثــم ينطلقون لشــيء آخر ليزيلــوا أسراره. إننــا نكتب كي نختار بعض المعاني مــن اضطراب الزمن أو اضطراب أنفسنا، إننا نكتب لاقتناعنا بوجود معنى ونحن نريد أن نحدد مكانه.



«الفــن يصيــب السيطــرة علــى الذات بالهلوســة»، هكــذا يقول فرويــد الذي كان مهتمــاً بالبعــد الرمــزي (وبالتــالي الفني) الغامض للعقــل أكثر مــن أي شخص آخر. هــذه الجملة تدهشني، فيهــا كل شيء، وكل شــيء فيها. الفن يصيب بالهلوسة كحلم. إنه حلــم صنع في منطقة الشعور وظهر في وضح النهار، أحيانــاً يطبع في مجلد لا شك مرتفع الثمــن، وإذا كان حلماً جديراً بالتسويق فقد يبــاع للسينمــا ذلك الشــكل الفني الحديث الــذي يثــير أحلامنا فيجعلهــا تتحرك عبر الشاشــة في الظلام، بشــكل يضخم الصور والوجوه والإشارات بحيث تكون مناسبة جداً لنقــل كل أنواع الكوابيســ. وإذا لم يكن حلماً سهــل التسويق فقد لا ينشــر، ولكنه سيقبع، مثل معظــم المحــاولات الإنسانية، في مكان منعــزل عديم الضــرر منسياً ولكنــه مازال قيماً. لا حلم دون فائــدة، إنه «هلوسة» وكل أنواع الهلوسة مثل كل أنواع الرؤى ذوات قيمة لا تقدر بثمن.

كتب كافكا يقول: «لا بد أن نكون مخلصين لأحلامنا». عندها يبدأ الناس الكتابة (مع أن فكرة «بداية» الكتابة غريبة بالنسبة لي، مثل «بدايــة» التنفس) تدعمهــم طاقة معينة هي

الإحساس بأن عندهم شيئاً فريداً يريدون قوله، وأنهم هم وحدهم الذين يستطيعون قوله. هذه الطاقة، وهذا الاعتقاد الغامض هما أساس كل الفنون، ولكن عند دخولهم حرفة الكتابة التي تبدو للمراقب من الخارج ذات نمط دقيق وتحتاج إلى مهارة، يشعرون بالرعب حالاً نتيجة خوفهم من نقص خبرتهم الفنية، ويشترون كتباً لترشدهم إلى «طبيعة القصة»، وكل هذه النشاطات مفيدة لأن الكاتب يمكن أن يفيد من أي معلومة يستطيع الحصول عليها. ولكن أساس فن الكاتب ليس في مهارته ولكن في إرادته أن يكتب، رغبته في أن يكتب، بل في عدم قدرته على ألا يكتب!! أوجه طلابي إلى أن يكتبوا كثيراً: أكتب يوميات، دون ملاحظات، أكتب عندما تشعر بالتعاسة، وعندما تشعر أن عقلك على وشك الانهيار. من يعلم ماذا يمكن أن يطفوا على السطح؟ أنا قوية الإيمان بالقوى السحرية للأحلام، فالأحلام تقوينا حتى الكوابيس يمكن تسويقها. وهناك ما يمكن عزوه من العلاج المخطط الحذر الناتج عن الكوابيس، إذا كانت تستطيع أن تمدنا بأعمال مثل أعمال ديستوفسكي، وسيلين، وكافكا. وهكذا فإن أهم شيء هو أن تكتب، وتكتب كل يوم تقريباً في حالة الصحة والمرض. وبعد فترة أسابيع قليلة، أو سنوات قليلة، تستطيع أن تستخرج معنى من خليط تلك الانطباعات.. أو ربما ستكشف لك عن معناها فجأة. كان «تيودور روتك» يسجل البيت من الشعر على عجل ويبقى معه سنوات في أن يجد طريقه إلى قصيدة، وربما ولد هذا البيت قصيدة هو محورها. ما الفرق؟ إن الطاقة شيء هام. نحن نكتب لأن لدينا طاقة زائدة، لأننا أكثر عصبية أو نشاطاً أو فضولاً من الآخرين.

لماذا لا نحسن استغلال هذا الوضع ؟

وهكذا فإنه صحيح أن الفن «يصيب بالهلوسة » وذلك بالطبع لأن الفن ليس «واقعياً». وأنت لا تستطيع أن تجد طريقك إلى مكان ما بواسطة الفن، ولكن بواسطة الخرائط الدقيقة التي تصف سطح الأرض، ولا تستطيع أن تكتشف الناس من خلال القراءة، ولكن بالبحث في دليل التليفون. أن الفن غير «واقعي» ولا يحتاج أن يكون واقعياً، فالفنانون يحتقرون الواقعية الأرضية. إنهم معروفون بتصريحاتهم (أظنهم يعلنونها في حفلات الغذاء، رافضين أن يتنمر عليهم أحد كما يحدث لي دائماً) مثل: «وهذا أسوأ للواقع» الواقع الحياة العادية والصحف والمجلات وكل ما يجري عبر الشارع تلك هي مواد الفن العظيم ولكنها ليست الفن نفسه، ومع هذا فأنا مدركة للصعوبات الدلالية الكامنة في كلمة «الفن» دعنا نقول إن «الفن» يشير

إلى ظاهرة ثقافيــة وليست جمالية: هي أن عنكبوتاً ذاوية وضعت بطريقة سحرية نوعاً ما داخل إطار صورة تكون عملاً فنياً، ولكن نفس العنكبوت وهي سليمــة لم يلاحظها أحد، ما زالت عملاً طبيعياً ولن تفوز بأي جائزة. هذا أحد تعاريف الفن الــذي يغضب التقليديين كثيراً، ولكنــه يبهجني لأنه يوحي لي كيف أن الحيــاة ذات صورة كلية ولا شكل محدود لها، وكم نحن الكتاب (والعلماء وصانعي الخرائط والمؤرخين) ضروريون لجعلهــا معقولة. لماذا تكتبين؟ لكي أبحث عن المعاني الخفية للحياة. هو جواب ممكن وســار ومتفائل بالرغم من أنه قد يكون (فاوستيا)، أنني آخذ دائماً مادة قصصي من الحياة العادية. فأنا مهتمة كثيراً بالصحــف، وفي أعمدة آن لانــدرز، وبمجلة «الاعــتراف الحقيقــي» وبالطرائــف التــي تحكى على هيئة «قيل وقال»، حيث المفاجآت المدهشة. الدنيا مليئــة بالمفاجآت وبالمآسي. اذهــب حالاً إلى صحيفة من الصحف وطالع الصفحــة الخامســة أو الصفحــة التاسعة عشرة ودع عينك تستقــر على أحد العناوين الرئيسيــة، أي عنوان، هنــا ستجد قصة. لا أستطيع إحصاء القصص التي كتبت اعتماداً على الوصف المختصر الذي تقدمه الصحف، إن طبيعة الوصف الهيكلي الخاص بالصحف هي التي تجذبنــي إليها فيما أظن. أنها تثير في داخلــي حاجة في أن أجسد تلك القصص الدقيقة المختصرة، وأبعثت هذه الحادثة التي أصبحــت تاريخاً ولن يفهمها أحد أبداً، ما لم تعش مرة أخرى، ويكرر التعبير عنها بطريقة مسرحيــة، فمــن خلال جزء مــن حياة أحد الأشخاص -كمــا وردت في قصة الصحيفة - يستطيع الكاتــب أن يعيد صياغة الموضوع بأكملــه. أن الأمــر يشبه قطعــة من أحجية الصــور المقطعة التي يجدهــا الإنسان على أرضية الغرفة.. ويستطيــع أن يعيد صياغة اللعبة كاملة بقليل مــن الجهد، ما المانع؟ أو ربما قد تتخيل كلاً كاملاً أفضل من الأصل، ما الذي يمنع ؟

من أجل هذا الفن «يحلم» أو يهلوس، إنه يتمعن في معطيات الواقــع: الملاحظة التي تسمــع صدفة، أو الثــورة المفاجئة للعاطفة، جو الشعور بالفــزع، أو الشعور بالغضب، أو قصــة في مجلــة «اعترافات حقيقيــة» تبدو تماماً وكأنها كابوس. تلك هي موادنا الخام. لا أريد أن أكتب أي شيء لا يمكن كتابته أولاً لـ«اعترافــات حقيقية». فأنا لا أريد أن أكتب أي شيء لا يمكن أن يغنى بشكل من الأشكال، كالأغنيــة الشعبيــة المعروفــة بـ«البلد» ذلك الشكل هو من أكثر الأشــكال الفنية تجريداً وأحداثاً، وهو نوع مــن الحلم الذي نادراً ما يتحول إلى حقيقة. إن الكتابة النقدية تأسرني

كما يأسرني الأذكياء، ربما إلى درجة الجنون. لا أستطيع أن أقاوم مقارنة ذكائي بذكاء كتّاب آخرين عندها أحاول فهم أعمالهم بالتحليل والاستكشـــاف. إن أقدســ المهمات وأصعبها ليســت النقد، ولكنها الفن، مــع أن الفن قد يكون أسهل تحقيقاً.

الفن يصيب سيطرة الذات بالهلوسة. ما الذات؟ إنها ذاتي التي تكتب هذا، وإنها ذاك أنت التي تقرأ هـــذا. إنك تشبه مادة الحياة (بروتوبلازمـــا) في سجن معين، نفسك ليست ثابتة ولكنها مرنة، ومتغـــيرة، وغامضة. إنها لم تكـــن أبدا النفس ذاتهـــا، ومع ذلك فإنها لم تكن أبـــداً نفساً أخـــرى. وعندما تموت فلن يحل محلك أحد، وعندما أموت سوف ينتهي وجودي الخاصـــ وشخصيتي إلى الأبد، وقد يكون هـــذا أمر جيداً ولكنها حقيقة لا يمكن تبديلهـــا. فذواتنا ترغـــب في التسلط، ونحن نرغـــب في «التحكم» الحقيقـــة تفوتنا دائماً لأنهـــا مثـــل أنفسنا مرنـــة وغامضة ومخيفة بشكل مبهم.. إنها دائماً أبعد من فهمنا. حتى الذيـــن يحبوننا ونحبهم، ونظـــن أننا نسيطر عليهم قليلاً، هم في النهاية أيضا فوق فهمنا، إنهم مرتفعون في استقلالهم، قد حكم عليهم بالوجـــود والموت، ولكنا نريـــد، ونريد بشكل متهور، هذا التسلط ولأننا نحتاجه لا بد من إيجـــاده، إننا نحلم، ونبدع عالمـــاً (دعنا نقل قصة قصيرة) يسكنه أناس من صنعنا نتحكم في أفكارهم، ونتأكد أن مصائرهم تضيف إلى فهمنا معنى معيناً.

يخبرنا فرويد أننـــا نحتاج إلى أن نتعرف قليلاً علـــى أنفسنـــا كتاباً، نحـــن نكتب كي نتظاهـــر بالسيادة على العـــالم، وعلى خلاف الشكوكي الذي يكره الفن لأنه «غير حقيقي»، فأنـــا أجد هذا مبهجاً جداً، وأظن أنها مهمة ساميـــة، إن محاولـــة السيطـــرة الذاتية على العالم، أو قطعة بترت من العالم، تبدو لي أمراً ساميـــاً. هناك جـــو مقدس يتميـــز به النوع الخفيـــف البسيـــط من القصصـــ القصيرة (لنقل قصصـــ يودورا ولتســـي وشيكسوف) كمـــا يوجد جو مقدســ، وإن كان أكثر عمقاً حول الأعمال الأدبية الضخمة التي تعود إلى القرن التاسع عشر، مثل روايات «موبي دك» و «الأخوة كارامازوف» التي كتبها أناس يريدون أن يسجلوا كل شيء على الورق، كل شيء لأن الفنـــان كأي رجل ديـــن أو أي ساحر أو حتى أي عـــالم من علماء الطبيعـــة مفتون بالمعاني التي تقع تحت المظهـــر الخارجي للحياة. إن اكتشاف تلك المعاني لمهمة سامية.

الفـــن كله ذو معنـــى. ومعناه قد يكون في العملية العنيفـــة، أو المناسبة التي يوجد من خلالهـــا –كرسوم بولـــوك أو دي كوننق – أو قد يكون في مادة العمل نفسه الأكثر تقليدية،

واضحــاً لدرجة أن الدارس قــد يضع خطاً تحت «عش بقدر ما تستطيع فإن من الخطأ ألا تفعل» (في رواية جيمس السفراء) ويشعر أنــه أدرك معنى العمــل دون أي مراوغة. إن «معنــى» موبي ديــك موجــود لا في الفصل الشهــير عن الحوت الأبيضــ فحسب بل في الفصــول كلها - المملة والمثيرة على حد سواء - العمل كله يتضافر على إظهار معناه الذي هو استكشاف (ملفلف) للواقع.

وهكــذا لماذا تكتبــين؟ للإجابة على هذا السؤال الهام مرة أخرى: إننا نكتب لأننا كلفنا بمهمــة سامية، وهي إنتاج أسرار واضحة، أو الإشــارة إلى بعض الخفايــا حيث سيطرت البساطة المخدرة وغــير الدقيقة. إننا نكتب لنكون صادقين مع بعض الحقائق ومع بعض العواطف. إننا نكتب «لنشرح» بعض الأحداث غير المتزنة فيما يبدو.. لماذا يحارب بشراسة شــاب ذكي ويقتل؟ لماذا تدمــر امرأة سعيدة حياتها: لماذا يقــترف إنسان سوي الانتحار: إننــي أعــترف بأننــي نمط قــديم متمسك بالأعــراف، وأنني أظهــر وأتصرف بطريقة تقليدية، والمحرك لكتابتي هو تقليدي وليس عجيباً أو غريباً، أنني مفتونة بالأبنية والآراء الغريبة، ولو استطعت لقصصت قصة مقلوبة أو مكتوبة في ثلاثــة أعمدة في نفس الوقت، ولكــن وراء كل خروجي البسيط عن المألوف رغبة صادقة هي الفهم. إنني أريد أن أعرف أسبــاب العواطــف الإنسانية، وحتــى إن لم أستطع إلا القول مراراً وتكراراً أن العواطف الإنسانية هي أعمق الأسرار ولا سبيل لفهمها، فأنا قليلــة الاهتمام بالوسائــل الفنية التي تسبر غور الصفحة المستوي، مؤكدة أنها غير حقيقية (مثــل أعمال بيكيت التي يسخر من عملية الكتابة ذاتهــا). ومع ذلك فمن المؤكد أن الفنانين التجريديــين والتكعيبيين عملوا أشيــاء جميلة من القماشــ كقماش بدلاً من القماش كمرآة. ولكن مجــرد الذكاء بالنسبة لي كامرأة أمــر يتطرق إليه الملل سريعاً. وإذا كانت قصة من القصص تدل على ذكاء، أفليس من الأحسن إرسالها مقالة أو رسالة إلى رئيس التحرير. أنــا مشغولة البال بالأفعال التي لا تؤدي أي غرض غــير الإيحاء بأن هذا العالم الذي نسكنه هو ذو طبيعة سائلة.

وإذا كانت القصة مكتوبة بشكل جيد، فلا حاجة لتأكيد معناهــا أو إدراكه أمام حقيقة عــدم المعنى. إن القصة هي معناها. هذا كل ما في الأمر. أي قصــة من قصص شيكوف هــي معناها. إنها خبرة وحادثة عاطفية ذات جمال عظيم في الغالب، وقبح عظيم في بعض الأحيان، ولكنها نقية في نفسها ولا تحتاج إلى تفسير «السيدة ذات الكلب المدلل» وهي قصة نموذجية من قصصــ شيكوف، تحكي قصة

حب يائس بين رجل متمرس وامرأة غرة، زوجة لأحد الأثرياء الأغبياء. التقيا، ووقعا في الحب، واستمرا يلتقيان.. كانت تبكي وهو لا يستطيع شيئاً، ولا يستطيعان الزواج بسبب أسرتيهما، والتزاماتهما الاجتماعية، إلخ. هذا هو كل ما تعنيه القصة.

لقد قدم لنا شيكوف إحساساً بمعضلتهما، وشعوراً لا يمكن نسيانه بآلامهما، والقصة لا تحتاج أن تحمل أي معنى وراء ذلك المعنى. من المؤكد أنهما لم يعاقبا على اقتراف الزنى، ولم يعاقبا على عدم جرأتهما وهروبهما معاً، كما أنهما لم يعاقبا على كونهما غير عاطفيين بما فيه الكفاية. إنهما شخصان عاديان وقعا في وضع غير عادي «السيدة ذات الكلب المدلل» هي تسجيل لأزمتهما العاطفية، ونحن نتفاعل معها -وقد نتردد في خداع أنفسنا- نرى أنفسنا في مثل هذه الورطة لا حول لنا ولا قوة على رغم مكرنا وذكائنا.

أما فيما يتعلق بطبيعة القصة القصيرة، فليس لها طبيعة واحدة ولكن طبائع. طبائع مختلفة. وكما أننا جميعا لنا شخصيات مختلفة، فكذلك أحلام شخصياتنا ستكون مختلفة. وليس هناك قاعدة يمكن أن تساعدنا. كانت توجد قاعدة «لا تكن مضجراً» ولكن هذه قد تجاوزها الزمن، فاليوم بعض الكتاب مثل بيكيت وألبي وبنتر مضجرون عن قصد (مع أنهم قد يكونون نجحوا أكثر مما يعرفون) وقد يقبلون أي شيء. مبالغات مفرطة، وتصغيرات خيالية، ومناظر قصيرة جداً، ومناظر طويلة جداً، ولمحات سينمائية وانطباعات. وفقرات استنباطية طويلة على طريقة توماس مان، أي شيء. ليس هناك طول معين للقصة القصيرة أو الرواية. أعتقد أن أي قصة قصيرة يمكن أن تكون رواية، وأي رواية يمكن تحويلها مرة أخرى إلى قصة قصيرة أو إلى قصيدة. فالواقع مرن وضخم. فلنقسمه إلى أكبر عدد ممكن من الأشكال، ولنضع له أسماء وننشره في مجلد. دعنا نحوله إلى فيلم، ولنعلن أن كل شيء مقدس، ولذلك يصلح أن يكون مادةً خاماً للفن، أو ربما لا شيء مقدس، وبالتالي لا شيء يترك دون استعمال. يريد الكاتب الهاوي أن يكتب عن أشياء عظيمة، وعن موضوعات مهمة. ربما لأن عنده اهتماماً اجتماعياً، ولكن لا يوجد أشياء عظيمة، إنما توجد معالجات عظيمة. كل الموضوعات مهمة أو تافهة، وليس هناك قواعد، أننا أحرار. المعجزات مستعدة في حبر شريط الآلة الكاتبة الذي لم يفتح بعد، تتوق إلى الانطلاق. إنني أواجه تلاميذي إلى أن يكتبوا عن موضوعاتهم الحقيقية. كيف يعرفون أنهم يكتبون عن موضوعاتهم الحقيقية؟ بالبساطة التي يكتبون بها،

وبترددهم بأن يوقفوا الكتابة. وبإحساسهم المغمور بالفرحة والصداع، وحتى الشعور بالذنب، بأنهم أنجزوا شيئاً لا بد من إنجازه، واعترفوا بعواطف ظنوا أنه لا يمكن الاعتراف بها، وقالوا ما حسبوا أنه لا يمكن قوله. توقف عن الكتابة عندما تكون صعبة عليك وعد إلى الكتابة مرة أخرى حول موضوع آخر، فالموضوع الحقيقي يكتب نفسه، ولا يمكن إسكاته، ضع أحلامك بشكل معين، ولو أحلام يقظتك، هذب أحلام يقظتك وستظهر معانيها السرية. ولماذا تكتب على أي حال؟ وإلا كنت تشعر أن الجلوس في حالة انبهار محدقاً في السماء أو في النهر حدث مقدس بطريقة ما، وأن أعماق نفسك مبتهجة بهذا، فقد تكون إذا كاتباً أو شاعراً، وفي الوقت المناسب سوف تعبر عن مشاعرك.

الكتّاب يكتبون في النهاية، لكنهم يشعرون أولاً.. يالها من حياة رائعة!

